القسم الأول

مسؤولية المثقفين
في البلدان المتخلفة (1)

اعتقد انه ليس ثمة حاجة الى التأكيد على ان مسؤولية المثقفين فى البلدان المتخلفة ، لا يمكن تحديدها وابراز معالمها الا على ضوء معطيات الواقع الذى تعيشه هذه البلدان .

فما هي هذه المعطيات، او ما هي السمات الرئيسية للمجتمع المتخلف؟

ان نظرة عجلى الى واقع مجتمعات البلدان المتخلفة ، المستقلة حديثا — كبلدنا — تكشف عن عديد من هذه السمات . ولعل ابرزها ما يلي :

1 — ان المجتمع المتخلف مجتمع فوضوى التركيب : الطبقات لم تتضح حدودها بعد ، فالصراعات الطبقية غير واضحة ولا متميزة بشكل كاف .

لماذا ؟

ا — لان وسائل الانتاج ، وهى فى الغالب غير متطورة بالشكل الكافى ، هي فى معظمها فى أيدى الاجانب ، ولان البورجوازية الوطنية الناشئة لم تستقل بعد مصالحها عن مصالح الاجنبى المسيطر ، فمهمتها تنحصر غالبا فى دور الوسيط .

(1) مقالة نشرت بمجلة « اقلام ». ابريل 1964 .

ب — والطبقة الكادحة ، من عمال وفلاحين ، لم تنفصل عن البورجوازية والاقطاع انفصالا تاما ، لان «رباط» الوطنية الذى اطر جميع قوى المجتمع ضد الاجنبي ايام الكفاح من اجل الاستقلال ، لا زال مفعوله لم يضمحل ، ولان البورجوازية الوطنية نفسها لم تبرز بعد كقوة وكخصم للعمال مما جعل الوعى الطبقى فى هذه المجتمعات يظل محدودا سطحيا .

ج — وجماهير الفلاحين ، وهي الاغلبية الساحقة من السكان ، لا تزال شبه مستعمرة يتحكم فيها الاقطاع والمعمرون ، كما انها ما تزال لم تتخلص بعد من الروح القبلية البدائية التى جعلتها ترى فى الاقطاع ظاهرة طبيعية مقبولة تزكيها التقاليد والمعتقدات والاوهام ، وفى رؤساء القبائل اشخاصا لا يمكن الا ان تدين لهم بالولاء .

2 — نظام الحكم فى هذه المجتمعات هو ، غالبا ، نظام تحكمى يعمل جادا على ابقاء الوضع الراهن على ما هو عليه . فهو يهادن المستعمر، ويتعامل معه، بل ربما يستغيث به عند الحاجة .

3 — وعى الجماهير فى هذه البلدان ، وعى «متقطع» ينقصه الاستمرار ، ويفتقد سعة الافق ، وقوة التفكير ، انه وعي كثيرا ما لا يتعدى كونها تشعر بالظلم والحرمان والجهل .

4 — والفئة الواعية حقا ، او المفروض فيها ان تكون كذلك ، هى **فئة المثقفين ، وهي فئة قليلة العدد ، ضئيلة الامكانيات ، غير مرغوب** فيها من طرف القوى المتحكمة الا اذا برهنت عن استعدادها للسير فى ركاب هذه القوى والعمل على خدمتها .

تلك فى نظرى اهم صفات مجتمع البلد المتخلف المستقل حديثا . وعلى ضوء هذه الصفات يمكن لنا ان نحدد مسؤولية هذه الفئة الاخيرة ، **فئة المثقفين «الواعية»** .

فما هي حدود هذه المسؤولية ؟

لا شىء يحدد طبيعة هذه المسؤولية غير طبيعة هذا الواقع الذى تعيشه شعوب هذه البلدان ، و « الواقع » الذى تنزع اليه . وما هذا الواقع الجديد الذى تتطلع اليه الجماهير الا الواقع الذى

تتحقق فيه تلك الصورة الذهنية المثلى التي كانت تعطيها لمفهوم الاستقلال ايام كانت تناضل من اجله ! ان كلمة الاستقلال لم تكن تعنى لدى الجماهير مجرد استبدال حكام دخلاء بحكام وطنيين فقط، بل كانت تعنى فى ذات الوقت استبدال اوضاع متفسخة يسيطر فيها الظلم والحيف والفاقة والجهل ، باوضاع جديدة اساسها كرامة الفرد، وكرامة المجموع ، اوضاع لا مكان فيها للظلم والتحكم والحرمان .. ومما ساعد على تركيز هذه الصورة فى ذهن الجماهير تلك الاساليب الدعائية التي عمدت اليها البورجوازية الوطنية اثناء الكفاح ضد الاجنبى ، وهى اساليب قصد منها تحميس الجماهير فى نضالها ضد الدخيل اكثر من العمل على توعيتها وتفتيح ذهنها وارشادها الى طريق النضال الصحيح ، النضال الهادف المثمر . الشيء الذى جعل تلك الصورة صورة مغرية مموهة ، ولكنها مشوهة .

والمثقفون ، وهم الفئة الواعية التى اكسبتها ثقافتها موضوعية التفكير ووضوح الرؤية ، والقدرة على التحليل والمحاكمة المنطقية مما يجعلهم فى حصن من ان تنطلي عليهم اساليب البورجوازية ومن ان يخيفهم تحكم المتسلطين ، ان المثقفين هؤلاء ، هم وحدهم القادرون على تصحيح تلك الصورة فى الوعى الجماهيرى ، ورسم الطريق الصحيح لتحقيقها فى حيز الواقع الملموس .

ومن هنا نستشف بعض جوانب المسؤولية الملقاة على عاتق المثقف.

ان تصحيح تلك الصورة يتطلب ، كمقدمة اساسية ، تعرية الواقع المؤلم الذى تعيشه الجماهير ، وتركيز مظالم هذا الواقع فى بؤرة شعورها تركيزا يجعلها تحيا هذه المظالم كجزء من يوميتها، كما يتطلب فضح البورجوازية واساليبها ودورها الوظيفي كعميل وسمسار للاستعمار وللقوى الاجنبية ، وطرح مشكلة «الاقطاع» امام الفلاحين البؤساء ، طرحا يجعلهم يقتنعون بأن بؤسهم هذا ليس الا نتيجة مباشرة لوجود الاقطاع ، كما يتطلب اخيرا رسم طريق النضال الثورى الهادف لنسف هذا الواقع والشروع فى بناء اوضاع جديدة تتحقق فيها آمال واهداف الجماهير .

يتضح مما تقدم ان دور المثقفين فى الشعوب المتخلفة هو فى الاساس دور طلائعى . وهو دور تدركه الجماهير ربما اكثر مما يعيه

المثقفون انفسهم ، ذلك لان الجماهير ، وهي امية تنظر الى المثقف على انه «الانسان الممتاز» . فهي تضفي عليه اقصى ما يمكن ان تتخيله من درجات الفهم والعرفان والتفكير ، وابعد ما يمكن ان تتصوره من مناقب واخلاق . وهي عندما تنزل المثقف مثل هذه المنزلة ، لا ترى فيه شخصا بعيدا منها منفصلا عنها ، بل بالعكس تحس به اقرب ما يكون اليها . انها ترى فيه «صورتها النموذجية» تماما كما يرى الاب في ابنه الصغير البريء صورته المثلى محملا اياه جميع امكانيات الخير والصلاح . وبعبارة اخرى ، انها تعتبره نتاجها الخاص ، ملكها الخاص ، منقذها الذي صنعته بيدها ، وغذته بقلبها .

ان الثقافة امانة في عنق صاحبها ، ومسؤولية حملها اياه المجتمع مقابل ذلك «الامتياز الثقافي» الذي يكسب المثقف اعتبارا وتقديرا . والجماهير تدرك بحدسها الفطري هذه الحقيقة ، فهي ترى في المثقف واحدا من «بينها» وانته الظروف لياخذ اكثر بكثير مما اخذت هي من حق مشاع تتساوى فيه حظوظ الجميع . لذلك فهي لا تفتأ تطالبه بالعطاء عطاء خصبا مسترسلا ، عطاء يتناسب مع اخذه ، ذلك الكثير .!

فالمثقف مطالب دائما ، مدين ابدا ، مسؤول دوما .

انه في امتبار الجماهير ، بمثابة الطبيب الذي ان لم يعمل على استئصال الداء من الواقع المريض الذي تعيشه ، فلا اقل من ان يرسم لها نظاما — ريجيم — من شانه ان يخفف من وطأة هذا الداء ريثما يتهيأ الدواء .

ورغم انه في كثير من الحالات قد لا يتمتع المثقف بالاستعدادات والمؤهلات الذاتية التي تمكنه من القيام بهذا الدور الطليعي ، فان الجماهير ، شعورا منها بذاك الامتياز الذي يتمتع به، في الوقت الذي تحس هي بمرارة الحرمان منه، لا ترحمه ابدا، ولا تفهم مطلقا كيف يعقل ان تستغرقه دوامة عمله واشغاله الخاصة، وان يتاخر نتيجة لذلك عن مركز الطليعة ! انها ترى فيه ذلك الابن الذي لا يمكن الا ان يكون بارا بوالديه مضحيا من اجلهما، والا اتهمته بالعقوق، فتنفض يدها منه ، ولكنها لا تملك عقابا له الا النظر اليه باحتقار ممزوج بالشعور بالخيبة.

ان نظرة الجماهير هذه الى المثقف تضعه امام مسؤوليات خطيرة :

— انه مسؤول عن نفسه . والقيام بهذه المسؤولية يتطلب منه ان يكون اخلاقيا طوية وسلوكا، لا مجال للانتهازية والانانية والانحراف فى تصرفاتـــه وسلوكـــه .

— وهو مسؤول — بمعني ما من المعاني — عن مجتمعه ، وهـــذا يستلزم ان يعيش المثقف داخل المجتمع لا خارجه ، يحيا آلامه وآمالـــه، متحملا النصيب الاوفر منها، شاعرا بها شعورا عميقا صادقا فاعلا .

— وهو مسؤول — بشكل ما من الاشكال — عن المستقبـــل . وهذا يتطلب منه ان يكون عضوا فعالا فى صفوف الجاهير ، وتتجـــلى فعاليته فى كونه المحدد للهـــدف ، الراسم لسبيله ، الدافع اليه.

فالمثقف ، ليس انسان «القوقعة» ، بل هو للاخرين وللمستقبـــل معا ، بمقدار ما هو لنفسه : انه كالمصباح ينير ذاته ، وينير محيطـــه ، فيهتدى بنوره هو والاخرون معه ، فى مسيرة يحتل مكان الطليعة فيها.

انهـــا مسؤوليـــة عظيمـــة ضخمـــة !

على ان هناك حقيقة اخرى مهمة تزيد من ضخامة وعظمة هـــذه المسؤولية . وهى ان جل المثقفين فى البلدان المتخلفة — ان لم نقل كلهم — هم شباب . وهنا تبدومسؤولية الشباب عظيمة وخطيرة .

فالمثقف فى هذه البلدان ليس مطالبا فقط بالقيام بدور طلائعى فى ميدان الفكر والتوجيه ، بل هو مطالب ايضا بالعمل . فلا يقبل منه ان يقوم بدور المفكر الموجه الدافع من وراء حجاب . بل ان الاحتكـــاك الدائم بالجماهير ، والعمل معها جنبا الى جنـــب ، متطلب اساسى من متطلبـــات المسؤولية الملقـــاة على عاتقه .

انه السائق ، وهو الوقود فى آن واحد : ثقافته مقود . وشبابه قـــوة محركة دافعـــة .

واضح ان هذه الصفات التى خلعناها على المثقف هى فى الحقيقـــة صفات «المثقـــف الثورى» .. ولكن ماذا عسى ان يكـــون المثقف فـــى البلدان المتخلفـــة ان لم يكن ثوريـــا !؟

ايكون ذلك الذى اضاع ثقافته ، واضاع مسؤوليته ، فاصبـــح

لا يحسن الا القراءة والكتابة ، ويعيش بهذا الذى يحسنه منهمـــا ، استاذا او موظفا ، غارقا فى فراغه ، مجترا لذكرياته .

ام انه هو ذلك الذى يعيش فى نـــوع من «التعالى» خارج الدوامة، بعيدا عن واقعه وواقع مجتمعه ، ممتوعبا بشكل ما جانبا من جوانب ثقافة الماضى، أو متتبعا بشكل ما جانبا من جوانب ثقافة العصر الحاضر، محلقا فى اجواء فكرية مجردة قد لا تنتهى به الي هدف او سبيل ؟

ان الثقافة التزام ، والتـــزام يستمد ابعاده من الواقـــع ومـــن الشروط الضروريـــة لتغييـــره او تحسينـــه .

والواقع الذى تعيشه شعوب البلدان المتخلفة هو ـــ كما وصفناه ـــ واقع مريض ، ليس فى حاجة ـــ بالطبع ـــ الى من يمتص دمه ، ولا الى من يعطيه امثلة ودروسا فى فن التجميل ، وانما هو فى حاجة ملحة الى اجراء عملية جراحية تستأصل الداء الخبيث من جسمه الغض !

ان الثورية بعد اساسى من ابعاد كل مثقف يعيش ـــ راضيا او مكرها ـــ فى مجتمع متخلف ، وبدونها يصبح لقيطا طفيليا ، لصا اناتيا ، ربيبـــا للرجعية والبورجوازية والاقطاع ، خطره على المجتمع اعظـــم واهول من خطر هذا الثلـــوت اللعيـــن .